عنوان البحث:

الخطاب الاصلاحي في كتابات عبد الرزاق قسوم
(قضايا الاصلاح في كتابات عبد الرزاق قسوم أنموذجا)

الدكتورةبشي(عجناك)يمينة
أستاذة محاضرة أقسم اللغة العربية و آدابها
جامعة الجزائر2

الملخص:

تحاول المداخلة الغوص في طبيعة الخطاب الاصلاحي لدى المفكر عبد الرزاق قسوم في مفهوم أدواته و مضامينه و نماذجه ؛ و ذلك من خلال تناوله بالدراسة لقضايا الاصلاح الديني والتربوي و الاجتماعي و التحليل لمواقف و أعمال بعض أعلام الاصلاح في الجزائر أمثال :عبد الحميد بن باديس و الابراهيمي ، و أبي اليقظان و أحمد سحنون و غيرهم ...

كما تهدف هذه المداخلة إلى رصد ملامح الفلسفة الاصلاحية لدى عبد الرزاق قسوم ورؤيته ومنهجه في معالجته للقضايا الاصلاحية المطروحة ، وتكشف عن أهم مقومات الفكر الاصلاحي لدى عبد الرزاق قسوم ، و منهجه في التحليل و النقد لهذه القضايا، و مدى تجلي هذه القضايا الاصلاحية في أبعادها الفكرية و الفنية في الخطاب الاصلاحي عند عبد الرزاق قسوم .

لقد كان لميلاد فكرة الإصلاح في الجزائر مطلع القرن العشرين ،الأثر البالغ في الحياة العامة للفرد الجزائري ، الذي كان غارقا في بحر التخلف و الجهل ،تحت حكم استعماري جائر؛ و كان لظهور هذه الفكرة قبل[1]وغداة الحرب العالمية الأولى أن قلبت في هذا الوطن المعطيات الدينية التقليدية الجامدة التي كان يمثلها رجال الطرقية المنحرفة ،وقد أقر عبد الحميد ابن باديس ،رائد الإصلاح الإسلامي في الجزائر نفسه بهذه الحقيقة في قوله : "قبل ظهور الإصلاح لا أحد كان يعتقد أن الإسلام هو شيء آخر غير الطرقية)[2]..." وقد اتخذ المصلحون من القرآن الكريم ، و السنة الصحيحة منطلقا لدعوتهم الإصلاحية .وكان هدفهم العودة بالجزائريين إلى الدين الصحيح سلوكا وعقيدة ،وكان هذا التصور بعد أن نضجت الرؤية و تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في5 مايو سنة 1931 بقيادة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ؛ويسجل التاريخ الدور الريادي الذي لعبته آنئذ في الجزائر .من بين الذين سجلوا ذلك الدور و الأثر المفكر عبد الرزاق قسوم الذي أطلق عليها اسم "أم الجمعيات" متحدثا عنغاياتها ومقاصدهاواصفا الوضع العام قبل ظهور الجمعية قائلا:"..جاءت جمعية العلماء، بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس، وسحب دكناء تلف سماء الجزائر، وأرض جرداء تميّز حياتها، فتطبعها، باليبس، والقحط، والعقم،. ، فقد ناء الاستعمار بكلكله على الجزائر، فعمل على طمس معاني الوجود الحقيقي، فيها، فسادت فيها ظلامية الجهل، والخرافات والشعوذة والطرقية، وعمت فكرة الخنوع، والخضوع، والاستسلام لأمر الاستعمار الواقع، فصاحت الجمعية في كل ربوع الجزائر: " ألا أيها النوام، ويحكم هبوا.. [3]"!؛ أما عن دور قائدهافيقول:"..لقد كانت لصيحة ابن باديس وصحبه في الجزائر، وقعها السحري في القلوب والعقول، فإذا هي أرحام تتعاطف، وصفوف تتكاتف، وقلوب تتآلف، وجهود تتكاثف، وكل ذلك على تكبير الله أكبر: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا... .[4]و في الذكرى الخمسين لوفاة رائد النهضة الاصلاحية في الجزائر يقف عبد الرزاق قسوم عند المناسبة ليستخلص منها الذكر و العبر متأملاومعددافي"المقامة الباديسية في الذكرى الخمسينية " [5]أعمال و مواقف هذا الرجل الرمز وأثر منهجه الاصلاحي في حركية الاصلاح الشاملة في المجتمع الجزائريقائلا:"..فيا ابن باديس! يا رمز عزّتنا، وباني نهضتنا، ومحيي أمتنا! ..إنّ العلم الذي زرعته، في الليالي الحالكات قد أينع زرعه، وأثمر ضرعه في عقول الخلَّص من أبنائك، فصار يومًا، بل شهرًا للعلم، يتغنى فيه الجزائريون بخصالك، ويتغنون بحِكم أقوالك، وجلائل أعمالك، ..[6]و يمضي ساردا بمناسبة هذه الذكرى مساره الاصلاحي المحفوف بالمخاطر و المكاره و التحديات التي واجهها تحت حكم استعماري جائر؛حيث واجهت الجمعية صعوبات جمة في طريقها و في ذلك يقول الإبراهيمي " فهي التي جمعت الشتات وأحيت الموتى ،وحددت المبادئ ،كما كان عليها أيضا أن تهدم ،وتبني ، و تربي ،و تعلم في آن واحد ،وأن تواجه عدة جهات و تحارب الاستعمار ،و التدجيل في الدين ،و الضلال في العقائد ،كل ذلك مع قلة الأنصار و قلة المال.."[7] كان من ضمن مقاصد و غايات هذه الجمعية الإصلاحية إخراج الأمة إلى حياة جديدة ،كما أوضح القانون الأساسي [8]لهذه الجمعية أن هدفها هو الإصلاح الديني بمعناه الشامل ،وهذا محمد البشير

الإبراهيمي يوضح مجال نشاط هذه الجمعية وأهدافها حيث يقول : " من الغلط أن يقال أن جمعية العلماء ،جمعية دينية يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح الديني ،بمعناه الذي عرفه الناس و الحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني الذي لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي .."[9]

أما عننتائج و أثرالجمعيةفي حركية الاصلاح الشاملةفي الواقع الجزائري، فيقول عبد الرزاق قسوم - ..".فكانت الجمعية هي الديمة التي بللت المواهب، وصهرت المذاهب، وأبرزت المناقب، فإذا الجزائر خضراء بالنماء، بعد القحط، وإذا سبل الأمل والرجاء تبسط بعد يأس، وإذا النهضة العلمية الشاملة تبعث، لتعم كل حياة الفردوالمجتمع..."[10]!

أما بعد الاستقلال فالجمعية تسعى لتجديد خطاباتها، وتكييفها مع مستجدات الوقت الراهن ،و هذا ما يؤكده عبد الرزاق قسوم رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قائلا:"..إن التجديد سمة كل عصر وسنة من سنن الحياة، وقانون الإنسان يسير في المكان والزمان، تبعا لحركة الكون وتعاقب الأزمنة والتغيرات المصاحبة له الناتجة عن النشاط الإنساني ....، وعليه فإن خطاب جمعية العلماء المسلمين من حيث الشكل والمضمون يختلف من الناحية الإيديولوجية عما كان عليه إبان الوجود الفرنسي بالجزائر، وأن ملامح التجديد الخطاب الإسلامي الذي يميز هذه الجمعية في وقتنا الراهن يتخذ مدلولات متعددة وفي مقدمتها أنه يتسم بالعلم والتكنولوجيا، وواقعي بحيث يتماشى ومتطلبات الأفراد، ويتميز باستقلالية خاصة ويستند إلى مبدأ السيادية، ويظل هذا الخطاب الجديد بالرغم من كل هذا وفيا للثوابت الأمة الجزائري، ولمنطق الخطاب القديم، وعلى الإنسان الجزائري المعاصر أن يكون ملما بثقافة العصر، ومفتوحا نحو الأخر ويؤمن بتعدد الديانات، والتصدي إلى الغزو الثقافي المحدق بنا كل هذا يحتم علينا ضرورة تجديد الخطاب الإصلاحي وفق معطيات العصر ..."[11] تلك بعض الأدوار الاصلاحية التي قامت بها الجمعية فماهي قضايا الاصلاح التيناضلت من أجلها الجمعية و تناولها المفكر عبد الرزاق قسوم بالتحيل و الدراسة في كتاباته ؟

.الاصلاح الدينيفي كتابات عبد الرزاق قسوم

قسّم المفكر عبد الرزاق قسوم مهمة العالم في الأمة الإسلامية من حيث المنهج إلى نوعين، أحدهما الإصلاح الديني والآخر الإصلاح العلمي، فالديني يركز على ترسيخ العقيدة في النفوس، ونفي البدع والضلالات ومحاربتها؛ أما الإصلاح العلمي فيهتم بتنمية العقول، وأسلمة المعارف، والانتقال من الكم العلمي إلى الكيف العقلي متخذا في ذلك عاملا أساسيا هو الاستدلال الذي يقود إلى الإقناع.[12]

أضاف عبد الرزاق قسوم متحدثا عن عوامل القوة التي تؤهل العالم لأن يقود الناس على ضوء العلم، فذكر أن المذهبية لم تكن أبدا عامل تفرقة وضعف وتشتيت بل كانت ولازالت علامة قوة في الأمة تقوم على الاستنباط العقلي والتنصيص النقلي والتأصيل الأصلي، وهي عوامل تقف ضد التعصب والعصبية، وتنبذ الخلاف والطائفية، فالمخالف في المذهب والفكرة ليس مخالفا في الدين وأصوله.

ويربالمفكر عبد قسوم أنه وجب على العالم أن يكون قدوة ونموذجا يحتذى به خلقا وعلما، وأن يكون ملما بواقع الأمة وأحوالها فالعزلة- حسبه - خيانة لله ورسوله وللمؤمنين، وفسح المجال للفوضى، والغوغائيين ليقودوا أمر المسلمين، ووجب على العالم أيضا أن يكون مطلعا على العلوم الأخرى، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، فالعالم قائدٌ، ميدانُه النفوس ومصدره الكتاب والسنة الشريفة.[13]

أوضح عبد الرزاق قسوم أن أهم مقومات و مرجعيةالجمعية الأساسية في مقاله" ويسألونك عن السلفية وما قد سلف " [14]أن الجمعية رحم ولود يتسع لكل الأجنة الإسلامية الطاهرة. فالزوايا القائمة المستقيمة تجد نفسها، بكل رحابة داخل الجمعية .والسلفية بمفهومها الصافي التقي، ذات التوجه السنّي، الوسطي المعتدل، المستمدة لمنهجها من الفهم الصحيح للكتاب والسنة..إنها حقائق نؤكد عليها، أسوة بعلمائنا ، الذين ما فتئوا يؤكدون هم أيضا على مقوماتمرجعيتنا كجزائريين ...[15]. ويختم بحكمة الإمام محمد البشير الإبراهيمي، بهذا الخصوص: "إن الجمعيات لا تبقى، ولا يُضمن لها الدوام إلا إذا كان في المعنى الذي أسّست لأجله عنصر من عناصر التجديد لطائفة أو لأمة، وتكون قواعد العمران، وأصول الأديان مقتضية له في حياة تلك الأمة الروحية والمادية"[16].

تبدو الحاجة ملحة على وجوب تصحيح بعض المفاهيم حيث يحسمعبد الرزاق قسوم في دقة متناهية مسألة المرجعية الدينية التي تبنتها الجمعية في قوله".. إننا بهذا التحديد السديد، والتعليق الدقيق والعميق، نبعد عن العمل الإسلامي الذي نؤمن به، كل من لبس من الجهل سرابيل، وكل من يتلصص باسم الدين، وندعو إلى دين ينبذ كل ألوان الشرك وما يقرب إليها من قول أو فعل. كما ندعو إلى منهج ديني يكفر بكل أنواع الغلو في التكفير، والتبديع، وما يقرب إليه من قول أو فعل، ونبرأ إلى الله من كل من يقحم ديننا السمح المتسامح في هذه الألوان من الانحراف، يمينا أو يسارا،إن هي تركت توشك أن تشوه الوجه السمح للإسلام والطابع الانفتاحي لثقافته،للمساهمة في عملية التصحيح، وذلك بإعادة المفاهيم إلى مدلولاتها الحقيقية، والمبادئ الإسلامية إلى سياقها الديني السليم.[17]﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾[18].

الاصلاح العلمي و التربويفي كتابات عبد الرزاق قسوم

أما الإصلاح العلمي - حسب عبد الرزاق قسوم - فيهتم بتنمية العقول، وأسلمة المعارف، والانتقال من الكم العلمي إلى الكيف العقلي متخذا في ذلك عاملا أساسيا هو الاستدلال الذي يقود إلى الإقناع.[19]

وأضاف عبد الرزاق قسوم متحدثا عن عوامل القوة التي تؤهل العالم لأن يقود الناس على ضوء العلم، فذكر أن المذهبية لم تكن أبدا عامل تفرقة وضعف وتشتيت بل كانت ولازالت علامة قوة في الأمة تقوم على الاستنباط العقلي والتنصيص النقلي والتأصيل الأصلي، وهي عوامل تقف ضد التعصب والعصبية، وتنبذ الخلاف و الطائفية، فالمخالف في المذهب والفكرة ليس مخالفا في الدين وأصوله.[20]

ويرى قسوم أنه وجب على العالم أن يكون قدوة ونموذجا يحتذى به خلقا وعلما، وأن يكون ملما بواقع الأمة وأحوالها فالعزلة . حسب قسوم . خيانة لله ورسوله وللمؤمنين، وفسح المجال للفوضى، والغوغائيين

ليقودوا أمر المسلمين، ووجب على العالم أيضا أن يكون مطلعا على العلوم الأخرى، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، فالعالم قائدٌ، ميدانُه النفوس ومصدره الكتاب والسنة الشريفة.[21]

يدعو عبد الرزاق قسوم إلى التصدي بالعلم و أن الاحتفال بيوم العلم، ينبغي أن يكون الجذوة المشتعلة طيلة الشهر، بل وطيلة السنة. ولا يقتصر هذا الاحتفال، على تلاوة النشيد، وذكر محاسن بن باديس والذين معه، لكن يجب على الخصوص أن يُتبع بإخضاع التجربة الإصلاحية الباديسية للدراسة، والتحليل، واستخلاص الدروس والعبر منها. ذلك أن كل إقلاع حضاري، لابد أن يتحلى بالبناء والتشييد، القائمين على العلم منهجا، والصدق منطلقا، والتضحية سبيلا، والتحرير غاية وهدفا؛وقد تحقق لابن باديس وإخوانه العلماء، فخلدوا جميل الذكر في صحائف التاريخ؛[22]ذلك أنابن باديس ظل وفيا لمنهجه العلمي الواقعيالذي تمثل في إعداد الجيل و تربية النشء ، و قد وصفه أحد الباحثين: ' وهكذا عاش ابن باديس عالما لم يستهوه التنظير ولا شغلته الجاذبيات التأملية و الفكرية التي نجدها تستهلب كثيرا من أهل الفكر و تشدهم إلى ساحلها فيقضون العمر في بناء الرأي، بعيدين عن الواقع الاجتماعي أو متواصلين معه".[23]

ويخلص المفكر قسوم بعد تحليل عميق للمنهج العلمي الذي انتهجه ابن باديس و جماعته إلى نتيجة مفادها أن العلماء المصلحينأدركوا أن الجزائري لن يقدم على الجهاد والفداء مالم يع كينونته الثقافية وأصالته الإسلامية، وإنيته الجزائرية، فرفعوا شعار »الإسلام ديننا» بتحرر هذا الإسلام ووسطيته وانفتاحه على العلم. «والعربية لغتنا» لأنها لغة القرآن أولا، ولأنها المنقذة لنا من الاستلاب اللغوي، والمميزة لنا من الذوبان و«الجزائر وطننا» بحدودها المتميزة، وأصولها الحضارية المتجذرة، وأبعادها التاريخية[24].

غير أنه بعدالاستقلال عرف هذا المنهج و هذه الجهود تراجعا ملحوظا و ذلك يتضح في المسائل و الاشكاليات العديدة التي لا تزال تواجه واقع الاصلاح و التربوي العلمي في الجزائر رغم المحاولات الاصلاحية العديدة التي بذلت؛ إذ يبحث عن الأسباب و العوائق متسائلا عن طبيعة الاصلاحات التربوية التي تعاقبت عليها المنظومة التربوية و الوضع الذي آلت إليهدون تحقيق الأهداف المرجوة ، وذلك من خلال استعراض المفكر قسوم وضع المدرسة الجزائريةو الظروف المحيطة بها في مقاله الذي يتسم بالثورة و السخط على واقع " المدرسة الجزائرية من الإصلاح إلى إصلاح الإصلاح–[25]واصفا إياها:"...وسط مجموعة من التحديات والعقبات يعود أبناؤنا، وفلذات أكبادنا إلى صفوف الدراسة، وعلامات استفهام كبرى، وعلامات تعجب أكبر ترتسم أمام أعيننا، في هذا الجو المثقل بالمعاناة على أكثر من صعيد، فما ينتظر أبناؤنا في تمدرسهم، من مشاق تبدأ، بثقل المحفظة، وتنتهي باكتظاظالأقسام، مرورا، بالعنف السائد في مدارسنا، والآفات الخطيرة الملوثة لمحيطنا، والتسيب البيداغوجي المستبد بمنظومتنا ..وكل ذلك يتم وسط تبشير بالإصلاح، وإصرار على التبجح بالنجاح.[26]

و يذهب المفكر قسوم بعيدا في تحليل عميق لهذه الأوضاعالمترديةو ما يقف وراءها من عوامل وأسبابلينتهي به المطاف إلى الحقيقة التي لا مراء فيها والتي تتمثل في قوله:"...أدرك القائمون على الشأن المدرسي عندنا –إذن– الطريق المسدود الذي آل إليه إصلاحنا، فتنادوا مجمعين على ضرورة إصلاح

للإصلاح، وكانت الخطوات المتبعة من مختلف المسؤولين،أن يستيقظ القائمون على المدرسة الجزائرية، من غفوة التخدير الممنهج، الذي استمر سنوات كثيرة، ..، إذ قوض وحدات المناهج، وأعاق تكوين المكونين، وشوه مفهوم التمدرس، مما جعل الإدارة المدرسية تهتز أركانها، وتفقد مصداقيتها...[27]

يعد ذلك يقدم التشخيص الدقيقللأسباب الجوهرية التي تقف وراء إخفاق الاصلاح التربوي في الجزائر مثيرا قضية تراجع اللغة العربية في المنظومة التربوية و ما تعانيه من تقهقر، ويحلل قسوم هذا الوضع بقوله "إن خللا ما يكون قد أحاط بالتصور الشمولي للإصلاح والنهوض بالمدرسة الجزائرية من كبوتها.[28]..ويفصل أكثر في مسألة اللغة العربية مستواها المتدني لدى الطلاب قائلا:" فإذا علمنا أن خرّيج المدرسة الجزائرية اليوم، صار عاجزا عن تكوين جملة مفيدة، واحدة صحيحة باللغة العربية، أدركنا معنى الانتهاء من قضية اللغة العربية، فكيف والحالة هذه، تدعو إلى تشجيع اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية، واللغة الصينية، وفاقد الشيء، لا يعطيه، فالذي يعجز عن التحكم في لغته، لا يقدر على التحكم في لغات غيره.[29]

ثم يخلص في تحليله للقضية إلى ضرورة "العناية بالتاريخ، وباللغة، وبالدين، كما أكد على ذلك علماؤنا الأولون، بالثوابت التي أسسوا عليها جمعية العلماء،التي ستظل هي الوقاية الحقيقية من داء فقد المناعة الوطنية..وهي الركائز الأساسية التي بنى عليها ابن باديس منهجه العلمي والتعليمي .

و يختم المفكر قسوم بحثه بالعودة إلى مصدر الداء ليتساءل في الأخير:"لماذا حِدنا عن المنهج القديم الذي رسمه لنا ابن باديس في العلم والبناء، فأبدلنا كلّ ذلك بالظلم والشقاء؟.[30]

هكذا ينهي قسوم قضية المدرسة الجزائرية: من الإصلاح إلى إصلاح الإصلاح،" في الجزائر محللا و معللا أبعادها مشخصا الداء واصف الدواء؛ وما يلاحظ على الخطاب الاصلاحي لدى المفكر قسوم اتسامه بدقة التحليل و التشخيص و الجرأة و الصراحة و الواقعية في تشريح المشكلة و تحديد مكمن الداء و الدواء دون مواربة أو تجاهل للحقائق التي تقف وراء المسألة.

الاصلاح الاجتماعيفي كتابات عبد الرزاق قسوم

قضايا المرأة والأسرة في كتابات عبد الرزاق قسوم

لقد اهتمت الحركة الإصلاحية بالمرأة، و اعتبرتها عضوا أساسيا في إصلاح المجتمع. وكانت دروس (ابن باديس) العامة منذ البداية موزعة بين الرجال والنساء، وقد أعطى المثل والقدوة في ذلك. وفي مجلة (الشهاب) التي أنشأها (ابن باديس) باب خاص بالحديث عن المرأة في الشريعة والتاريخ الإسلامي مع ربط ذلك بالواقع في الجزائر، ثم أصبحت لا تكاد تصدر جريدة إصلاحية دون الحديث عن المرأة ومكانتها الاجتماعية والدينية.[31]،ومن وسائل الترغيب لدفع البنات إلى التعليم العربي أنه أعفاهن من دفع رسم التعليم أو (واجب التعليم)، كما نصّ على ذلك القانون الأساسي للجمعية [32]؛إذ فتحت جمعية العلماء مدارسها للفتيات ليتعلمن مجّانا، لتُكوِّنَ منهن جيلا يساهم في تربية الأجيال تربية متميّزة في الأسس

والمنهج، بعيدا عن التعليم الفرنسي الذي كان هدفه القضاء على مقوّمات الشخصية الوطنية، لذا ركّز (ابن باديس) في منهج تعليمه للمرأة وتكوينها على الجانب الديني والوطني قائلا: " الجزائرية بدينها، ولغتها،وقوميتها، فعلينا أن نعرّفها حقائق ذلك، لتلد أولادا منّا ولنا يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية ولا ينكرون أصلهم وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكّرون لأمتهم ولو تنكّر الناس أجمعون"[33]. يرى ابن باديس أن الطريق الموصل إلى ذلك هو:" تعليم البنات تعليما يناسب خِلقتهن, ودينهنّ وقوميتهن... ويوم نسلك هذا الطريق في تعليم المرأة نَكونُ– بإذن الله– قد نهضنا نهضة صحيحة نرجو من ورائها كل خير وكمال".[34]

تلك هي رؤية ابن باديس في طبيعة ونوعية التعليم الذي أراده أن تتلقاه الفتاة الجزائرية حتى تحافظ على مقومات شخصيتها الدينية والوطنية، ومرجع هذا التوجّه لدى (ابن باديس) في تربية وتعليم المرأة؛ هو أنه كان يخشى توجّه المرأة الجزائرية نحو الثقافة الأجنبية وحدها، وعدم اهتمامها بالثقافة العربية، مما يحقق أهداف السياسة الاستعمارية، لذلك فقد اهتم بتعليم الفتاة العربية تعليما وطنيا يقوم على (الحشمة، والفضيلة، والعفة، والصيانة)[35]مما يجعلها تؤصل تلك القيم في الناشئة مستقبلا، وفي نظر(ابن باديس) إن الفتاة المتعلّمة يمكنها اجتذاب قلب الشاب المتعلم، حتى لا يلجأ إلى الزواج بفتاة أجنبية، تختلف عنه في الدين والعادات والتقاليد، وبذلك يكون تعليم المرأة مدعاة للحفاظ على قيم الأسرة، وتماسك المجتمع[36].

لاشك أن مثل هذه القضايا التي عنيت بقضايا المرأة و تعليمها و النهوض بها طرحت زمن الفترة الاصلاحية و ناقشها الخطاب الاصلاحي الباديسي فترة الاحتلال، و يتجدد طرح مثل هذه القضايا ذات البعد الاجتماعي التي لها علاقة وطيدة بقضايا المرأة المسلمة و شبهات حول الاسلام ؛ فالضرورة حسب عبد الرزاق قسوم تقتضي تجديد الخطاب العربي الإسلامي ، و تقديم خطاب يعتمد الحوار القائم على المجادلة بالعقل والإقناع بالحجة الإنسانية والتأكيد على الخصوصية الثقافية، والتنوّع الحضاري بوصفهما مقومين أساسيين لبناء الوحدة الإنسانية الشاملة[37]. إذ يلاحظ على كتابات عبد الرزاق قسوم و ردوده حول "شبهات حول الاسلام"[38]يحلل و يناقشبالعقل و الحجة والإقناع هذه القضايا ا التي طرحت على الرأي الإسلامي، كقضايا الأسرة، والمرأة، والطفولة، والشباب، وما ينتج عنهامن قضايا حيوية، كتنظيم النسل، والعنف ضد المرأة، ، والزواج ، والطلاق[39].

إن الخطاب الاصلاحي عند المفكر قسوم يجمع بين مقاصد التنزيل في قضايا الأسرة، والتميّز الحضاري كمقوّم من مقوّمات الوحدة الإنسانية ثمّ يربط بين الموضوعين بخيط منهجي دقيق وعميق، واعتبر الجامع الأعظم لبناء الأسرة الإنسانية من المنظور الإسلامي على أساس التمايز (ذكر وأنثى)، والتكامل بين الجنسين "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ" والطمأنينة النفسية للزوجين "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا "والحب المتبادل "وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً[40].."في ضوء هذه المعطيات كلّها، يوضح قسوم كيفية إقناع الآخر يكون بتجديد و ترقية مستوى الخطاب الاسلامي

المعاصر، وكيفية الارتقاء بالقضايا المطروحة من منهجية الدفاع إلى أسلوب الإقناع، فمن الشبهات التي تثار حول الإسلام حق المرأة في المساواة، وحقها في الحرية، وحقها في تولي المناصب السياسية...الخ[41] ولا يجد المسلم عناء في دحض مثل هذه الطروحات، انطلاقا من القانون الإسلامي الثابت المدعم بالآيات والأحاديث "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً[42]".

إنّ كلّ هذه الشبهات المثارة من دعاة العولمة حول الإسلام التي يجب درؤهاومن هنا كانت حتمية وضع بدائل عن تلك الشبهات، وتقديم خطاب إسلامي موّحد، يعكس إنسانية الإسلام وواقعيته، وعقلانيته للمساهمة حضاريا في بناء مجتمع إنساني أفضل يحمي المرأة والأسرة ..انطلاقا من الفهم الصحيح للنصوص الإسلامية والتطبيق السليم للقوانين الإنسانية[43].

أما عن مسألة القوامة فيرى عبد الرزاق قسوم أنها تعني أن يتحمل الشخص مسؤولية ويقوم بها على أكمل وجه .وقوامة الرجل على بيته يعني تحمل المسؤولية عليه ولا يعني هذا أفضلية الرجل على المرأة، ولا أفضلية الذكورة على الأنوثة، لأن المرأة أيضا قوامة على بيتها وتربية أبنائها، وهي مهمة حسب قسوم لا تقل أهمية عن مسؤولية الرجل[44].كما يرى المتحدث ذاته أن مسألة القوامة لا تتوقف على الجانب الاقتصادي، وإن كان هذا الجانب عنصر مهما جدا في المسألة. وفي سياق مماثل قال قسوم"إن الإسلام ينظر للبيت والأسرة ككتلة متكاملة يسودها الوئام والتفاهم، وليس كما ينظر إليها الذين يطرحون اختلاف النظرة بين الرجل والمرأة في مسألة القوامة."[45]

أما بخصوص مسألة التمثيل النسوي في المجالس المنتخبة التي أثارت جدلا في الجزائر فيجيب عنها قسوم قائلا:"...نحن نعتقد أن المرأة هي شقيقة الرجل، ولا يمكن أن نحدد نسبة التمثيل النسوي لأن الإسلام وضع على قدم المساواة المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات "من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة"، إذا كانت هناك كفاءات عند النسوة تؤهلهن لأن يتبوأن مكانة علمية أو ثقافية أو اجتماعية، نحن لا نحصر عليها ونقول لها (ينبغي أن تقفي عند 30 بالمائة أو عند50 بالمائة)، فإذا كانت طبيعتها لا تؤهلها لنسبة معينة فلماذا ألزمها بـ 30بالمائة؟، وبالتالي نحن مع إعطاء المرأة حقوقها وما يتناسب وطبيعة أنوثتها، ومع طبيعتها كأم وزوجة، ومع طبيعتها البدنية، ومع بيئتها الاجتماعية، وإذا كانت هناك منافسة فلتكن، نحن نقول بأن الجامعة الآن أصبحت النسبة الغالبية فيها بنات وهن ناجحات، هل آتي لمعاقبة البنت على الولد؟، أنا لست من دعاة أننا نسجنها داخل نسبة معينة ولكن أفسح لها المجال في نطاق ثوابتنا وقيمنا ومبادئنا، فإذا تأهلت في هذا النطاق لأي منصب، تتولاه بدون أية مشكلة[46].

وهناك قضايا أخري وطنية و سياسية عالجها قسوم في حواراته مع كالشباب داعيا إياهم إلى "أن يكون الشاب مفيدا لوطنه وأن لا يكون تابعا لأشخاص وليكن تابعا لمبادئ ،أما عن التغيير المطلوب في المجتمع فيوضح: " نحن مع التغيير بالتي هي أحسن فلا يمكن ان يأتي تغيير ايجابي بالهدم والتهجير ولا بالفرقة ..كلمتنا علت دوما على التعصب والتخندق الضيق ،لان التغيير لا يمكن أن يكون إلا

بالتفاهم أو بالحوار بين أبناء الوطن الواحد لأنه من حق الشعوب بأن تقوم بالتغيير ولكن دون تدخل ودون قتال أو عنف[47]."

فلسفة المنهج الاصلاحي في كتابات قسوم

إن الخطاب الاصلاحي عند المفكر قسوم يجمع بين مقاصد التنزيل في قضايا الأسرة، والتميّز الحضاري كمقوّم من مقوّمات الوحدة الإنسانية .لقد تمكن من استلهام المنهج الباديسي الذييتسم بالشمولية و الالتزام من حيث الإحاطة في معالجة مختلف القضايا العصر. كما تميز المنهج الاصلاحي عند قسومالمفكر بالوعي العميقبأسباب الداء في المجتمع ؛ فعمد إلى تشخيص الأمراض، ووصف الأدوية، فكان فكره الاصلاحي فكرا واقعيا،يأخذ بعين الاعتبار حيثيات الواقع ومتطلباته حسب كل عصر

إن منهج قسوم الاصلاحي يتسمبالالتزام بقضايا الوطن والأمةو بالموضوعية والحياد في التحليل و المناقشة بصورة تجعلنا نلمس شخصية قسوم الباحث الجاد التي تمارس النقد والتحليل لا من أجل التسلية والتلاعب بالألفاظ وإبرازالقدرة على التحكم في آليات المعرفة، وإنما بحثا للوصول إلى الموقف الذي يتطلبه الأمر.

وهذا ما نستشفه بوضوح من خلال حديثه عن الكيفية التي سيتعرض بها للحديث ومناقشة ممثلي مدرسة المنطلق العقلي حيث يقول: "أما ما نلتزم به فهو أننا سنعمل على محاورة كل مفكر من منطقه العقلي، ولكن حسب تحديدنا الخاص لمدلول المنهج العقلي، والذي لا نعتقد أن يختلف معنا فيه كل ذي عقل سليم. فإن فهمنا للعقل يتخذ مدلولا شموليا بحيث لا يقصي النص الديني من دائرته، بالأصح أن يكون العقل هو دعامة النص الديني، وبالتالي يكون التمازج والتكامل بين النص الديني والمنهج العقلي.."[48]دون أن ينسى أن الهدف الأساس من كل ذلك يكمن في خدمة الفكرو توجيهالباحثين.

هكذا تتجلى لنا فلسفة الإصلاح عند قسوم، فهي تقوم على دعامتين أساسيتين هما ما يعبر عنها قسوم في لغة الفلاسفة بعملية "الإخلاء و الملء."

فهدف الإصلاح في مفهوم قسوم يبقى هو البناء الوطني بكل مقوماته، وخصوصياته، ولكن هذا البناء الوطني لابد له كي يتم، من التصدي لكل مظاهر التخلف، والجمود التي يصنعها الجهل، وقد رأينا كيف أن العلم هو الباب الكبير الذي ينبغي الولوج منه إلى البناء الوطني على أن العلم لكي يؤتي ثماره المرجوة، لابد من أن يكون علما إصلاحيا، يأخذ بمقومات الأمة، وثوابت الوطن، فالعلم والإصلاح إذن هما العاملان الأساسيان الموصلان إلى الخلاص الوطني.

يتضح مما تقدم أن منهج عبد الرزاق قسومالمصلح المفكريجمع بين الرؤية الاصلاحية وبين المنهجالفلسفي الاسلامي المتميز، فتارة نجده فيلسوف الأدباء و تارة أديب الفلاسفة، ينطق بالحكمة ويتفنن في العبارة، فيجمع بين الحكمة والبلاغة،والسبر العلمي لأغوار هذه الأسرار يفرض التساؤل عن كيفيات الخلوص إلى ذلك لا يكتفي بالعرض بقدر ما يعالج المسألة من وجهة نظر توجيهية، لأن التاريخ كالفلسفة خاضت فيه نظريات كثر، ولكن التوجيه الإسلامي كان غائبا إلا من قلائل ممن كتبوا عنه في العالم

العربي الإسلامي المعاصر وهوما يسر سبل الخوض من طرفه في مسألة التوجيه: أي التوجيه الإسلامي القائم على الروح العلمية..

الخاتمة:

بعد تحليلناالأهم القضاياالاصلاحية في كتابات المفكر قسومنتسطيعالقول إن الخطاب الاصلاحي لدى هذا المفكر اتسم بجملة من الخصائص نجملها فيما يلي:

–لقد تميّز الخطاب الاصلاحي عند المفكر قسوم بمنهجية عالية في التشخيص ,وأسلوب واقعي في الطرح، لوضع الشبهات والتحديات ، وتقديم البدائل المستوحاة من الفهم الصحيح للنص الإسلامي، والتأويل الصريح بالعقل الإنساني.

ـإن الخطاب الإصلاحيلدى المفكر قسوم يرتكزعلى أن النهوض لا يكون إلا بالرجوع إلى الإسلام وفهمه، والالتزام بهديه ، ويرى أن الإصلاح الاجتماعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بخيط الفكرة الدينية في منهجه وفلسفته الإصلاحية، ومرد هذا أن الدين الإسلامي هو المرجع الأول في حياة الإنسان في كل جوانبها وفي تحديد مصيره،لذا فإن المفكر قسوم يصدر في دعوته هذه عن رؤية فكرية دينية واضحة، لأنه من دعاة جمعية العلماء المسلمين الذين يصدرون عن تصور إسلامي في تنظيم مختلف العلاقات الاجتماعية بين الناس.

ـأما الجانب الفني في أسلوبمقالات قسوم فقد انطبعتبالطابعالعربيالإسلاميالخالص الذييتكئعلىالتراث اقتباساأوتضمينا ؛ وأسلوبهالمتميزبرصانتهوإحكامبنائهوانتقاءألفاظه،ووضوحفيالمعاني,وحسن التأنقفيصياغته.

وبعد.. فمهما منح الدارس لفكر قسوم، ومهما استخدم من منهجية علمية، فستتمرد على قلمه أفكار ومقالات، ومؤلفات شتى من انتاجه فقضايا اهتمامه أوسع من أن تحدها صفحات هذه الدراسة ، ذلك أنه بالرغم من قضايا الاصلاحالمتعددة التي أشرنا إليهافي كتاباته والتي أبانت لنا الدراسة فيها عن القضايا المختلفة وأساليب الخطاب الاصلاحي البليغ، إلا أن هناك مواضيع أخرى جديرة بالبحث والدرس، إلا أنه لم يسعفنا الوقت من إعطائها حظها من الدراسة، فقضية الاصلاح السياسي التي خصص لها كثيرا من إنتاجه، وقضايا المشرق و المغرب العربيين،كل هذه القضايا وغيرها ، تحتاج إلى دراسة تحليلية مفصلة،لأنهاتعكس حقيقة الفكرالسياسيعند المفكر قسوم و تؤسس له ، فهي لامحالة تضيفجوانب جديدةإلى فكره و فلسفته الاصلاحية.

الهوامش و الاحالات:

[1]-ALI MERAD ,Le REFORMISME MUSULMAN EN ALGERIE,1925 –a 1940 paris , 1967 p9.

[2]-ALI Merad , op cit., p58.

3–ينظر:عبدالرزاققسوم ،أم الجمعيات ومرجعيتها ، موقع:http://www.binbadis.net 09 مايو 2012.

[4]- المصدر نفسه .

[5]- ينظر:عبدالرزاققسوم ، المقامة الباديسية في الذكرى الخمسينية، **موقع**:http://www.oulama.dz 2013/04/18.

[6]-ينظر:عبدالرزاققسوم ، المقامة الباديسية في الذكرى الخمسينية، **موقع**:http://www.oulama.dz 2013/04/18.

[7]-البشير الإبراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ط 1 ش.و.ن.ت.الجزائر ،1978، ص215.

[9]-ينظر: البشيرالإبراهيمي، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،ط2 دار الكتاب، الجزائر 1982 ، ص 54–67 .

10–ينظر:عبدالرزاققسوم ،أم الجمعيات ومرجعيتها ، موقع:http://www.binbadis.net 09 مايو 2012.

[11]– ينظر: عبدالرزاققسوم،جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذج فكري يدعو إلى التعايش بين الأديان*elhiwarnet.com*: http://www16 نيسان/أبريل 2013 .

[12]– ينظر: عبدالرزاققسوم ،دور العالِم موقع : http://www.veecos.net29ينايير 2012 21:53.

[13] – ينظر: . المصدر نفسه .

[14]– ينظر : عبد الرزاق قسوم ،ويسألونك عن السلفية وما قد سلف ، موقع:http://www.albassair.org بتاريخ 8–4–1434 هـ .

[15]–ينظر: المصدر نفسه .

[16] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ط1،دار الغرب الإسلامي1997، ص129–124.

[17]–ينظر : عبد الرزاق قسوم ، حول الإسلام والتراث الثقافي، موقع:http://assala–dz.net//ديسمبر (كانون الأول) 2001 .

[18]– سورة يوسف:الآية108 .

[19] – ينظر: عبدالرزاققسوم ،دور العالِم موقع : http://www.veecos.net29ينايير 2012 21:53

[20] – ينظر: المصدر نفسه .

[21] – ينظر: عبدالرزاققسوم ، دور العالِم موقع : http://www.veecos.net29ينايير 2012 21:53

[22]– ينظر: عبدالرزاققسوم ، دور العالِم موقع : http://www.veecos.net29ينايير 2012 21:53

[23] **-** ينظر: سليمان عشراتي ، ابن باديس،ج02، دار الغرب للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص**244.**

[24] -ينظر: عبدالرزاققسوم ، دمعة حبر : وسام إلى العالم الجزائري في شهر العلم، موقع: http://assala–dz.netdz.net:الأحد15 أبريل 2012 .

[25]– ينظر: عبدالرزاققسوم ، المدرسة الجزائرية: من الإصلاح إلى إصلاح الإصلاح، موقع:.http://www.oulama. 11–09–2013.

[26] . ينظر:المصدر نفسه .

[27]–ينظر: عبدالرزاققسوم ، المدرسة الجزائرية: من الإصلاح إلى إصلاح الإصلاح، موقع:http://www.oulama.11–09–2013.

[28]ـ ينظر:المصدر نفسه .

[29]– ينظر: . المصدر نفسه .

[30]– ينظر: عبدالرزاققسوم ، المدرسة الجزائرية: من الإصلاح إلى إصلاح الإصلاح، موقعhttp://www.oulama.2013-09-11.

[31]– ينظر: د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6/ دار الغرب الاسلامي ص352.

[32]– ينظر: الإبراهيمي محمد البشير ,سجل جمعية العلماء ، ص25.

[33]– عبد الحميد بن باديس،" المرأة المسلمة الجزائرية"، الشهاب، نوفمبر 1929م/ ج10، مجلد5، قسنطينة، ص9.

[34]– ينظر: – عبد الحميد بن باديس،" المرأة المسلمة الجزائرية، ص9..

[35]–.ينظر–أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر) ط1 ،1985م، ص97 .

[36]–ينظر:–أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص233.

[37]– ينظر: الدكتور عبد الرزاق قسوم، شبهات حول الإسلام يجب تصحيحها، موقع:http://www.oulama.dz

[38]– ينظر: الدكتور عبد الرزاق قسوم، شبهات حول الإسلام يجب تصحيحها، موقع:http://www.oulama.dz. 24-25 –أكتوبر 2013 .

[39]–ينظر:المصدر نفسه .

[40]ـ تنظر : سورة الروم /آية 21 ,

[41] –ينظر:المصدر نفسه .

[42]ـ ـ تنظر :النحل : آية97

[43]–ينظر:عبد الرزاق قسوم، شبهات حول الإسلام يجب تصحيحها،موقع:http://www.oulama.dz.

[44] ـ–ينظر:عبد الرزاق قسوم، القوامة لا تعني أفضلية الرجل على المرأة**موقع**:http:/.www.al-fadjr.com السبت 01 مارس 2014 م

[45]–ينظر:–ينظر:المصدر نفسه .

[46]ـ ـ ينظر: ـحوار مع عبد الرزاق قسوم. على هامش الملتقى الوطني الأول "الشيخ اطفيّش القطب " ـhttp://www.binbadis.net

[47]ـ ينظر: عبد الرزاق قسوم: "على شبابنا اتباع المبادئ لا الاشخاص 13:16: http://www.elbilad.net 05-11-2013 .

[48]ـ ينظر: عبد الرزاق قسوم: مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصرة، تأملات في المنطلق..والمصب، الطبعة 1 ، دار عالم الكتب الرياض، 1997م ،ص 43.